إشكالية تكافؤ المعاني في ترجمة القرآن الكريم.

أ:عبدالحليم محمد

ماذا تعني كلمة ترجمة؟

ليس هذا البحث متخصصا في الترجمة فنا أو علما. وليست هذه مناقشة لتعريفات المعاجم العربية وغير العربية لمصطلح الترجمة، إنما هي إشارة عابرة للتذكرة؛ ولأن الأمر يتعلق بترجمة معاني القرآن الكريم. والترجمة والتفسير مصطلحان مترادفان متداخلان في العربية، وفي بعض اللغات مثل الفرنسية كذلك.

فماذا تقول المعاجم العربية عن "الترجمة"؟

كانت قضية ترجمة القرآن الكريم وعلى الأصح ترجمة **معاني** القرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى واحدة من القضايا التي طرحت نفسها وبشكل كبير على الساحة الإسلامية[1]، ولكن مع مرور الزمن لم يعد الإقدام على مثل هذا العمل حدث الأحداث في الإسلام. وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: إنه ما من لغة مكتوبة اليوم إلا وقد ترجم إليها القرآن الكريم.

يعد موضوع نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات

الأخرى موضوعاً بالغ الأهمية. وتأتي أهميته من تقديرين اثنين على الأقل:

الأول: هو أن القرآن الكريم كتاب يتضمن كلام الله الموجه إلى البشر أجمعين.

الثاني: هو أن البشر جميعاً في حاجة متزايدة إلى معرفة هذا الكتاب المنزل وما يتضمنه[2].

ويترتب على هذين التقديرين أمر البحث في أصح وسيلة لنقل معاني القرآن الكريم إلى لغات العالمين. أتكون هذه الوسيلة هي الترجمة؟ وهل ثمة إمكان لقيام هذه الترجمة أصلا؟ أو تكون هذه الوسيلة هي التفسير؟ وبأي صورة يكون؟

الترجمة – بأعم تعريف –: هي التعبير بلغة ثانية عن المعاني التي تم التعبير عنها بلغة أولى أو وضع (كلمة، أو نص، أو لغة) في لغة أخرى مُبقِينَ على سلامة المعنى[3].

ويدل هذا التعريف على وجود مستويين: مستوى المعاني، ومستوى التعبير عن هذه المعاني بلغة معينة. وتضيف **مريان لوديرار** في مؤلفها الترجمة اليوم والنموذج التأويلي ما نصه: " إنّ فعل الترجمة يحتوي على فهم نصّ، ثم يحتوي في مرحلة ثانية على إعادة التعبير عن هذا النص في لغة أخرى،

تستحق كلّ هذه العمليات دراسة خاصة لأنها معقدة تعقيدا مهما"[4] .

وفي حين يتساوى بنو البشر في كيفية اكتساب المعاني، يختلفون في طريقة التعبير عنها بحسب اختلاف لغاتهم. ويحدَّد هذا الاختلاف في أن لكل لغة وسائلها التركيبية والصرفية والصوتية التي تستعملها للتعبير عن المعاني المختلفة. فمعنى الاستفهام عن الشيء- مثلا- قائم في أذهان جميع البشر، ولكن التعبير عنه في اللغة العربية يتم بوسائل ليست هي الوسائل التي تُستعمل للتعبير عنه في اللغة الإنجليزية أو اليابانية أو الفرنسية أو الروسية أو غيرها. ومثل ذلك وارد أيضاً في جميع المعاني. فالترجمة إذن تعبير دقيق عن المعاني بالوسائل التركيبية والصرفية والصوتية المتوافرة في لغة ثانية (أو اللغة الهدف) شرط أن تكون معادلة للوسائل التي استُعملت للتعبير عن هذه المعاني في اللغة الأولى (أو اللغة المصدر). وشرطُ صحتها أن يكون مدلول العبارة أو النص في اللغة المصدر هو ذاته في اللغة الهدف.

لغة:

لو تصفحنا معاجمنا العربية فإننا نلاحظ أن معنى الترجمة يطلق على معان ترجع إلى البيان والإيضاح.

جاء في لسان العرب:

تَرجَمَ: التُرجُمان والتَرْجَمان: المفسر للسان. وفي حديث هرقل: قال لتُرجُمَانه. الترجمان، بالضم والفتح: هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى. جمع تراجم، والتاء والنون زائدتان[5].

اصطلاحا:

يمكن تعريف الترجمة في اصطلاح الناس وعرفهم بـ:

"التعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده".

وقد ذكر هذا التعريف الزرقاني وذكر محترزاته بقوله: "فكلمة (التعبير) جنس، وما بعده من القيود فصل.

وقولنا: (عن معنى كلام) يخرج به التعبير عن المعنى القائم بالنفس حين يخرج في صورة اللفظ أول مرة.

وقولنا: (بكلام آخر) يخرج به التعبير عن المعنى بالكلام الأول نفسه، ولو تكرر ألف مرة.

وقولنا: (من لغة أخرى) يخرج به التفسير بلغة الأصل، ويخرج به أيضاً التعبير بمرادف مكان مرادفه، أو بكلام بدل

آخر مساو له، على وجه لا تفسير فيه، واللغة واحدة في الجميع.

قولنا: (مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده) يخرج به تفسير الكلام بلغة غير لغته؛ فإن التفسير لا يشترط فيه الوفاء بكل معاني الأصل المفسَّر ومقاصده، بل يكفي فيه البيان ولومن وجه[6].

وما دام الشغل الشاغل هو حقل القرآن، فترجمة القرآن هي التعبير عن معناه بلغة أخرى،[7] تكون فيه اللغة العربية اللغة الأولى أو المصدر واللغة الهدف هي اللغة الثانية.

أنواع الترجمة:

وحتى يتسنى لنا التدليل على صحة ما سبق من عدم وجود ترجمة للقرآن بل لمعانيه، لا بأس من أن نعرض – بإيجاز– أنواع الترجمات فنجد:

الترجمة الحرفية: وتتمثل في استبدال كل كلمة بإزائها.

الترجمة المعنوية: وتسمى أيضا التفسيرية وهي كأن يعبر المترجم عن معنى الكلام بلغة أخرى، ولا يهمه في ذلك مراعاة المفردات والترتيب. وتسمى تفسيرية لأن حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير وما هي بتفسير.

فإذا أخذنا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: 105]. فالترجمة الحرفية تكون بأن أستبدل كلمات هذه الآية كلمة كلمة. فأترجم مثلا (إنّا) بما يقابلها في اللغة الإنجليزية بـ(we have) و(أَنزَلۡنَا) بكلمة(discharged)ثم (إِلَيۡك) ثم(ٱلۡكِتَٰب) ثم (بِٱلۡحَق) وهكذا. أما إذا أردنا أن نأتي بمعنى الآية[8]، فسأترجمها كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها وهذا ما يشبه التفسير الإجمالي[9].

فَتَفَهُم معنى النص واجب عند أصحاب الاختصاص قبل أن يباشر المترجم بتأدية النقل من لغة إلى أخرى سواء أاتبع المترجم الترجمة الحرفية أو المعنوية، ذلك لكي لا يمل من قراءة المتن مرارا بهدوء وتذوُّق فتنسجم لديه التراكيب ودقَّة ألفاظها[10].

بالنظر إلى التعاريف السابقة، فإن الترجمة تتطلب – عموماً – معرفة كافية بمعجم اللغة المصدر(Source Language) ومعجم اللغة الهدف(Target language) وبقواعد اللغتين النحوية (بالمعنى العام للنحو)؛ إلا أنه ليس من الضروري أن تتوافر في كل لغة الألفاظ الدالة على المعاني المعبر عنها بألفاظ لغة أخرى.

كما بيَّن الدكتور أحمد المتوكل من أنه[11] "... من الحالات غير النادرة ألا نعثر للمفردة المصدر على مقابل لها في

اللغة الهدف ويحدث هذا خاصة حين يتعلق الأمر بالمفردات التي تنتمي إلى حقول ثقافية خاصة، أي المفردات التي تعبر عن خصائص ثقافية (بالمعنى الواسع) لا تتقاسمها ثقافتا اللغتين". فالمفردات الإنجليزية (To hitchhike وTo thumb و To treat someone) ليست لها مُقَابلات في اللغة العربية. وعكس ذلك أن بعض المفردات العربية مثل "حج" و"زكى"... لا تقابلها في اللغة الإنجليزية مفردات تحمل الدلالة نفسها."

يتسنى لمن يشتغل على الترجمة أن تتحقق لديه شروط، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم إذ هي عند الكثير من الدارسين مستحيلة التحقيق وكثير من أهل العلم يقرن شروطا أساسية بهذا النوع من الترجمة، أهمها:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ت- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات[12]. ولا يمكن

للترجمة بأي حال من الأحوال ومهما كان المشتغل بها أن تؤدي المعنى بكامله.

وأما إذا تعلق الأمر بكلام رب العالمين فإنها سوف لن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين.

ومن جهة أخرى، إذا كانت اللغة تسعفنا للتعبير عن تجاربنا النفسية والمعرفية والثقافية والعلمية وغيرها، فإنها- في الوقت ذاته- تحمل بصمات تجاربنا تلك، تجاربنا مع العالم الخارجي خاصة. وليس اختلاف اللغات الشديد إلا تعبيراً عن اختلاف تجارب المتكلمين.

لذلك، فإن الترجمة ليست مجرد انتقال من لغة مصدر إلى لغة هدف، بل هي انتقال من لغة موسومة بتجارب مُتَكَلِمِيها ومُخَزنة لعناصر نسقهم التصوري إلى لغة موسومة بتجارب متكلمين مختلفين عن الأوائل ومخزنة لعناصر نسقهم التصوري المغاير.

كيف يمكن لمترجم أن يترجم إلى اللغة الإنجليزية- مثلا- كلام العربي: ' **أثلج الله صدرك**'، دون أن يعرف اقتران الماء البارد بالفرح والحبور في تصور المتكلم العربي الذي يعيش في بيئة صحراوية قاحلة، ودون أن يعرف أن ترجمة هذه العبارة

ترجمة حرفية تراعي تكافؤ المفردات المعجمية وتراعي القواعد النحوية سيؤدي إلى خلاف معناها تماماً في لغة متكلمين يعانون من برودة الثلج المتهاطل عليهم أغلب أيام السنة، ولا يربطون في تصورهم بين الماء البارد أو الثلج وبين الفرح والحبور. والفعل " أثلج" في اللغة الإنجليزية لا نجده ينصرف إلا مع الضمير (It) أي ما يقابله في العربية (هو، هي)لغير العاقل أي (السماء).

وكيف يمكن له أن يترجم العبارة الآتية: هذا الرجل زكى مالاً كثيراً وسيحج هذه السنة. دون أن يعرف دلالة الكلمتين (زكى) و(حج) داخل نسق الاعتقادات الدينية للمتكلم المسلم. ولا بديل له عن ذلك لأن معجم اللغة الهدف ليس فيه مقابل دقيق للمفردتين المذكورتين ما دام نسق الاعتقادات الدينية لمتكلميها لا يشمل الفعلين (زكى) و(حج) بمعناهما الإسلامي.

كل ذلك يبين- بما لا مجال للشك فيه- أن الترجمة السليمة يجب ألا تقف عند حدود مراعاة التكافؤ بين المفردات المعجمية ولا عند تطبيق القواعد النحوية، وإنما يجب أن تتعداه إلى مراعاة المواضعات الثقافية والاعتقادات الدينية والتصورات المختلفة.

ويصل الأمر عند بعض المختصين في علوم الشريعة إلى حد تحرمها-الترجمة الحرفية- وإبعادها عن شرح القرآن الكريم لكون الترجمة المعنوية تستطيع أن تحل محلها.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حساً في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا[13].

وقد نستثني من ذلك ترجمة بعض الكلمات الخاصة بلغة من نخاطبه ليفهمها دونما يلجأ إلى ترجمة التركيب كله.

يقع في الذهن أن لترجمة القرآن المجيد فائدة، هي نشر دعوة الإسلام بين الشعوب التي لا تفهم الكلام العربي، ويضاف إلى هذا أن كثيرًا من الأوربيين قد صنفوا ما سموه ترجمة القرآن، واشتملتْ هذه التراجم على أخطاء فاحشة، صدرت منهم على جهالة أو على عمد، ولا يكفي شر هذا الفساد إلا أنْ ننقل معاني القرآن إلى تلك اللغات على وجه صحيح.

لدى كان لعلمائنا الفضل الكبير في أن اجتهدوا في علوم الدين، فبينوا للأمة حلال الأمور وحرامها وما يقربهم من رضا ربهم وما يبعدهم عنه، فخاضوا في التفسير والترجمة والتأويل حيث أجاز عامتهم الترجمة المعنوية للقرآن لما يعود من ورائها من فائدة شرعية في إيصال الهدى للناس وإبلاغ هذا الدين، وهم بذلك يعدونها وسيلة لإبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ورغم هذه الفسحة من الأمر إلا أننا نجدهم يجعلون شروطا أهمها:

أ- أن لا تصبح هذه الترجمة بديلا عن القرآن فيتعبد بتلاوتها، ومن ثم يستغنى عنه. وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية، وإلى جانبه هذه الترجمة لتكون كالتفسير له[14].

أما الشرط الثاني فهو يتعلق بذات المترجم، إذ يتوجب عليه أن يكون عالما بمدلولات الألفاظ في اللغتين، المترجم منها والمترجم إليها. ثم لا يغفل الشرط الأساسي وهو أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. ولا يتصرف في الكلمة أو الجملة أو السياق بهواه بحيث يجب أن يكون مسلما مستقيما في دينه.

كما يتطلب على المترجم أن يكون فاحصاً من نوع خاص[15]، فاحصاً يجيد اللغة العربية وفنونها وبلاغتها، ويجيد كذلك اللغة المترجم إليها، وتكون عنده من الثقافة الإسلامية الأصيلة ما يمكنه من الحكم على ما تؤديه الترجمة من معنى يتفق مع المعايير الإسلامية الصحيحة في اللغة المترجم إليها، وحتى نكون أكثر واقعية، فإنه مهما كانت كفاءة وقوة الترجمة، فإننا لا نتوقع أن يستطيع ويتمكن المترجم من نقل وترجمة جميع الإبداعات والمعاني البلاغية الموجودة في النص العربي، وما ذلك إلا لقوة اللغة العربية، ويكفي في ذلك دليلاً ما ذكره أحد المتخصصين في علم الترجمة: « لا توجد ترجمة مهما كانت مصداقيتها يمكن القول إنها ناجحة تماماً »[16].

لذلك: فقد وجد المترجمون الذين قاموا بترجمة معاني القرآن الكريم من اللغة العربية مباشرة صعوبة ترجمة ونقل

نفس ما هو موجود في النص العربي، لأن القرآن الكريم – وكذا كل كلام عربي بليغ– له معان أصلية، ومعان ثانوية.

والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، وبها كان القرآن معجزًا.[17]

فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منثور كلام العرب أو منظومه، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه ببديع نظمه وروعة بيانه، أي بالمعنى الثانوي.

وأكبر دليل على ذلك: ما نجده في أن كثيراً من الذين قاموا بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية مثلاً قد حاولوا الهروب من تسمية أعمالهم «ترجمة»، وسموا محاولاتهم أسماء أخرى، فعلى سبيل المثال: أطلق...«محمد مرمادوك» على عمله اسم: «معاني القرآن الكريم»، وأطلق محمد أسد على عمله: «رسالة القرآن»، كما أطلق الإنجليزي[18] « أربري » على عمله اسم: «القرآن مفسراً», أطلق «هانز تسيركر» على ترجمته «القرآن – مداخل وقراءات».

ولعله من بديهي القول أن الترجمة هي: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، وتكون بإحدى طريقتين:

أ) عملية توصيل ونقل معاني القرآن الكريم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، وهذا النوع كان متبعاً حتى في زمن المصطفى – صلى الله عليه وسلم–، وليس هناك خلاف بين علماء الإسلام حول جواز هذا النوع من الترجمة.

ب) عملية تقديم النص القرآني حرفيّاً بلغة أخرى غير العربية، وبالتالي:

تحل هذه الترجمة محل النص القرآني العربي، وحول هذا النوع يكاد يكون هناك شبه إجماع بين علماء الإسلام المعتبرين على استحالة وعدم جواز مثل هذا النوع من الترجمة.

ويمكن عزو ذلك إلى أسباب، منها:

1– أن المرادفات الأجنبية لا تستطيع نقل الظلال التي تحملها الكلمات والمفردات العربية.

2– تضييق معاني القرآن الكريم إلى معانٍ ومفاهيم محددة باللغة الأخرى سيؤدي (لا محالة) إلى فقدان واستبعاد معانٍ أساسية ومهمة.

3– سيؤدي إبراز النص القرآني بلغة أخرى حرفيّاً إلى عدم الوضوح وإلى نوعٍ من الغموض.

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية. فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المُعْجز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته، نزل على نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم– بلسان عربي مبين[19].

ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله، "فإن الله لم يتكلم إلا بما نتلوه بالعربية، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة؛ لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية – والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته"[20].

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآنًا.

الهوامش:

1– فهد بن محمد المالك، نظرات في قضية ترجمة معاني القرآن الكريم، مجلة البيان، الجزء**94** ، جمادى الآخر **1416** نوفمبر **1995**م السنة: **10**، ص **40**.

2– عز الدين بن مولود البوشيخي، نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى بين الترجمة والتفسير، في ندوة: ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، الفترة من **23** إلى**25** أبريل **2002**م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة. من موقع http: //www.qurancomplex.org

3– ENGLISH LAROUSSE- w: translate, translation -, 1968 Augé, Gillon, Hollier-Larouse, Moreau et Cie Librairie Larousse, Paris.

4- مريان لوديرار، الترجمة اليوم والنموذج التأويلي، تر: نادية حفيز، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008،ص13.

5- ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، الجزء 12، ط 6، دار صادر، بيروت، لبنان، 1417هـ -1997م، مادة (ت ر ج م)، ص66.

6- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، ج2، ط1، دار الفكر- بيروت-لبنان، 1424هـ- 2004م، ص79-80.

7- محمد بن صالح العثيمين، أصول في التفسير، ط2، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1423هـ، ص35.

8- Surely, We have sent down to you (O Muhammad)this Book (the Qur'an)in truth that you might judge between men by that Allah has Shown you(ie has taught you through Divine Revelation),so be not pleader for the treacherous.

9- ينظر أصول في التفسير، ص32.

10- JOSEPH N. HAJJAR, Traité De Traduction, Septième édition, Dar el-Machreq , Beyrouth, Liban,2002,p13.

11-أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية – البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان، الرباط، 1995م، نقلا عن نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة أخرى بين الترجمة والتفسير، مصدر سابق، من موقع http: //www.qurancomplex.org

12- ينظر أصول في التفسير، ص36.

13- ينظر أصول في التفسير ، ص37.

14- هذا ما تكفل به مجمع فهد ابن عبد العزيز لترجمة المصحف الشريف.

15- فهد بن محمد المالك ، نظرات في قضية ترجمة معاني القرآن الكريم.

16- المصدر نفسه، ص 40.

17- ينظر مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الجزء1، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1421هـ - 2000م، ص325 و326.

18- حسن سعيد غزالة، أساليب المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم، الندوة العلمية في رحاب طيبة الطيبة تحت عنوان: القرآن الكريم في الدراسات الإستشراقية. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في الفترة من 16/ 10/ 1427هـ، الموافق 7/ 11/ 2006م إلى 18/ 10/ 1427هـ، الموافق 9/ 11/ 2006م، من موقع:

http: //ibnalislam.com/vb/archive

19- وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)- فلما أوعد الله بسقر لمن قال: (إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر.

ابن أبي العز الحنفي، صدر الدين علي بن علي بن محمد، شرح الطحاوية، تح: أحمد محمد شاكر، نشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ، ص127-128.

20- مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق الجزء1، ص325.